

طُورُ الْحِمَامَةِ

فِي الألفَةِ والألَافِ

تأليف

أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن عزم بن غالب الأندلسي

المتوفى سنة 456 هـ

جمعه وحققه وشرحه

الدكتور عفيف نايف مطرم

دكتوراه من جامعة عين شمس والسربرن

دار طائر

بيروت

وقد كنتُ أكرهُ منه الجِوارَ وما كنتُ أرغبُهُ لي أليفاً
وكان البغيضُ فصار الحبيبَ وكان الثقيلُ فصار الخفيفاً
وقد كنتُ أدمِنُ عنه الوجيفَ فصرتُ أديمُ إليه الوجيفاً¹

وأما أبو شاكر عبد الواحد بن محمد القبري فكان لي صديقاً مدةً على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودّة ، واتصلت ، وتمادت إلى الآن .

- 5 -

باب من أحبّ من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لصوق الحبّ بالقلب من نظرة واحدة ، وهو ينقسم قسمين ، فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا ، وهو أن يعشق المرء صورةً لا يعلم مَنْ هي ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً ، وقد عرض هذا لغير واحد .

[خبر]

حدّثني صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخبره سقط عني اسمه ، وأظنه القاضي ابن الحذاء² ، أن يوسف بن هارون الشاعر³ المعروف بالرمادي كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمَع النساء ، فرأى جاريةً أخذت بمجامع قلبه وتخلل حبّها جميع أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالرّيض . فلما صارت بين رياض بني مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم في مقبرة الرّيض خلف النهر نظرت منه منفرداً عن الناس لا همّة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : ما لك تمشي ورائي ؟ فأخبرها بعظيم بيتها بها . فقالت له : دَع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي فلا مطمع لك في البتّة ولا إلى ما ترغبه سبيل ، فقال : إني أقنع بالنظر ، فقالت : ذلك مُباح لك ، فقال لها : يا سيدتي ، أحرّة أم مملوكة ؟ فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خلوة ، قال : ولكن أنت ؟ فقالت له : علمك والله بما في السّماء السابعة أقرب

1 الوجيف : والوجف والوجيف : ضرب من سير الإبل .

2 القاضي ابن الحذاء . (راجع الصلة 478-480 وترتيب المدارك 733/4) .

3 هو أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي الشاعر المشهور . قال صاحب كتاب «الصلة» : أظن أحد أبائه كان من أهل رماة موضع بالمغرب شاعر قرطبي كثير الشعر سريع القول . وكان شيوخ الأدب في

وقته يقولون : فتح الشعر بكندة وختم بكندة امرئ القيس والمنيبي ويوسف بن هارون .

وقال ابن حيان : «وتوفي سنة ثلاث وأربعمائة يوم العنصرة فقيراً معدماً ودفن بمقبرة كلع» .

ابن خلكان 227/7 . وعيون التواريخ حوادث سنة ثلاث وأربعمائة - خ - .

إليك مما سألت عنه ، فدع المحال ، فقال لها : يا سيدتي ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتني اليوم في مثل تلك الساعة من كل جمعة . . . فقالت له : أما تنهضُ أنت أو أنهضُ أنا ، فقال لها : انهضي في حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أي يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمر - وهو يوسف بن هارون - : فوالله لقد لازمتُ باب العطارين والريض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعتُ لها على خبر ولا أدري أسماء لحسستها أم أرض بلعنها ، وإن في قلبي منها لأحر من الجمر ؛ وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره . ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سبيلها إلى سرقسطة¹ في قصة² .

ومثل ذلك كثير ، وفي ذلك أقول قطعة منها :

[من البسيط]

عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر
فأرسل الدمع مقتصاً من البصر
فكيف تبصر فعل الدمع مُتصفاً
منها بإغراقها في دمعها الدرر³
لم ألقها قبل إحصاري فأعرفها
وآخر العهد منها ساعة النظر

والقسم الثاني مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ، ولكن التفاضل يقع في هذا في سرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخبرٌ بسرعة السلو ، وشاهد الطرافة والملل . وهكذا في جميع الأشياء : أسرعها نمواً وأسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثاً وأبطؤها نفاداً .

[خبر]

إني لأعلم فتى من أبناء الكتاب قد رآته امرأة سرية⁴ النشأة ، عالية المنصب غليظة الحجاب ، وهو مجتاز ، ورأته في موضع تطلع منه كان في منزلها ، فعلقته وعلقها ، وتهاديا المراسلة زماناً على أدق من حد السيف ، ولولا أنني لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكاييد ، لأوردت مما صحّ عندي أشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل ، أسبل الله علينا سيرته وعلى جميع المسلمين بمنه ، وكفانا .

1 سرقسطة : الروض 317 والعذري 23 والإدرسي دوزي 190 .

2 ذكر هذه القصة في جذوة المقتبس 347-348 .

3 الدرر : الدرر النفس واللبن . وناقاة دُرُورٌ ودارٌ كثيرة الدرر وإبل دُرُورٌ ودُررٌ ودُرارٌ .

4 السُرُو : التسرية والمروءة في شرف . سُرُو ككُرْم فهو سُرِيٌّ ج أسرياء وسُرَواء .

يا أليفا
لخفيفا
رجيفا¹

ير رؤية ، ثم التقينا

قسمين ، فالقسم
ولا يدري لها اسماً

عني اسمه ، وأظنه
ن مجتازاً عند باب
ذت بمجامع قلبه
وهي ناهضة نحو
ي مروان - رحمهم
الناس لا هممة له
به بها . فقالت له :

سبيل ، فقال : إني
كة ؟ فقال لها : ما
سما السابعة أقرب

ح كتاب «الصلة» :
وكان شيوخ الأدب في